مشاهدات في الطريق

الجوع ، الجوع :

هذه صورة آدمية ، أطفال من الذكور والإناث ، تتراوح أسنانهم بين السادسة والخامسة عشرة ، زريون متقذرون ، مهازيل تموج فى وجوههم صفرة الموت ، يرتجفون من برد الشتاء ارتجاف الورقة فى مهب الريح ، و يزويهم من حر الصيف ما يزوى الجلد من لهب النار ، يندلق عليك أحدهم وفى يده ورقة من أوراق "النصيب" فلا يزال يصب فى أذنك ضراعته الذليلة حتى يضجرك أمره ، ولا يبرح يصدم قلبك بمسكنته الباكية حتى يشيع الأسى بين جوانحك ، وهو لا يعرف من لغة الضراعة والذل غير اليمين المرسلة ، يحلف أنه جوعان لم يذق طعاما منذ أمسه ، ثم لا تزال هذه الكلمة تتردد بين شفتيه ، جوعان يا بيك ، جوعان والله العظيم . . .

ترى لو أنك فى مكانى حينئذ ماذا كنت صانعا ؟ أما أنا فلا أجد ما يمنع اسكاته بالقرش المطلوب إلا قلبا من الصخر ونفسا من كتلة الظلام ، وأما أنت فكذلك إلا أن تتحول عنه فى سرعة كسرعة البرق الخاطف ، و بعد ذلك فكلانا يعلم أنه وضع الاحسان فى غير موضعه .

* * *

أضاعه أهله :

وهذه صفوف من الصور الآدمية ، كلها أطفال وغلمان ، سلكهم القدر فى قيد من الحديد ينتظم الجميع ، والى جانبهم شرطى يسوقهم إلى حيث هم مأخوذون .

وأنت حين تراهم لا ترتاب فى أنهم أحداث أتعسهم ظلم الفرد وأشقاهم إهمال الجماعة ، فاتخذوا من جسم الأمة مكان الجروح الدامية ، وقد كانت طريق أنخم شارع من شوارع القاهرة حين رأيت أحد الجنود وهو يسوق فى هذا الشارع الأنخم — على عين من يرى ويتفرج — صفا متداعيا من هذا الهشيم انسانى .

وكان آخر الصف غلام يناهز الرابعة عشرة من عمره ، له عينان لا تزال تطل منهما بقية من الحياء ، وفيما كان رفاقه يتندرون و يضحكون كان هو كظيما باكى العين ، ومن كان غلاما فى مثل ما هو فيه يحمل النفس على استطلاع حاله ، وكذلك رحت أحدثه :

— ما شأنك يا ولدى ؟

— أديك شايف .

— ولماذا قبضوا عليك ؟

— لأنى حرامى . . .

— ولماذا أنت حرامى ؟

— لأنها صنعتى !

— أليس لك ما تفعله بعد أن تخرج من السجن إذا هم سجنوك ؟

— أرجع حرامى .

— أليس لك أهل يهتمون بشأنك ؟

— أهل . . . ما فيش أهل . . . لا ، بل لى أهل ولكنهم ناس دون !.

— وكيف ذلك ؟

— مات أبى وسنى سبعة أعوام، فتزوجت أمى غيره وتركتنى لأعمامى ، فلما ذهبت اليهم طردونى ، فذهبت الى أمى فطردنى زوجها .

وسكت كأنه يقول إن ما بعد ذلك لا يحتاج الى كلام ، ولكنى سألته :

وماذا كان من أمرك بعد أن طردك أعمامك وزوج أمك ؟

تشردت فى الشوارع ، وتعلمت التسول والسرقة ، ثم وجدت السرقة أخف من ذل السؤال .

—قلت : خير لك ياولدى أن تتوب من السرقة ،سيذهبون بك الى سجن الإصلاحية، وستتعلم هنالك صناعة تنقذك من ذل المتسولين وعار اللصوص ، وستخرج شابا مزودا بعدة الحياة .

ولكنه جعل فى موضع الجواب ابتسامة كلها عجب و يأس،وكان الشرطى قد استحث نعاج القطيع لتسرع بين يديه ، فقال وهو يلاحق رفاقه : لا تصدّق كل ما يقال :

* *

غرباء ومتعطلون :

لا هى مرة أولى ، ولا ثانية ، ولا ثالثة ، ولكنهن مرات لا أعرف أنا ولا تعرف انت كم أصبح عددهن الى الآن .

ومهما يكن ففى كل مرة من هذه المرات يفاجئنى أو يفاجئك فى عرض الطريق رجل شيخ قد يكون متلفعا بعباءة وحرام ، وقد يكون الى حدّما رث الهيئة أو حسن الهندام ، وربما كان أفنديا مزقت الفاقة ثيابه أو مزقتها حيلته ، وربما وقف فى الطريق رشيقا أنيقا لا عيب فيه ولا غبار عليه ، وهو ، سواء أكان أفنديا أم شيخا ، رجل يبدو فى ظاهره موفور الصحة معافى من كل سوء ، بل هو رجل يقيم من نفسه جسما شامخ البناء ، ويقتحم الدنيا بعين نافذة الشعاع ساطعة الضياء ، ولكنه مع ذلك يحترف الاستجداء ويمشى على غير استحياء .

يقول لك : من فضلك لاتؤاخذنى أنا غريب فى هذا البلد ، جئت أقضى مصلحة ففرغت نقودى ... لاقدرة لى على الكلام ، ان الحياء يكاد يقتلنى . ولكنها الضرورة ، والأمر لله ... من فضلك خمسة قروش فقط .

أو يقول لك : كلمة واحدة ياسعادة البيك ، اسمح لى أقول كلمة واحدة ... ... كنت موظفا فرفتونى ظلما ، عندى سبعة أطفال ، تركتهم فى البيت وليس عندهم لقمة ... من فضلك ثمن الخبز فقط ... الله لا يفضحك .

بمثل هذه المفاجأة يلقاك أحدهما أو كلاهما ، وبمثل ما يكتنفها من حرالسلام وقوة المصافحة يهجم الشك على نفسك ، فهذا الذى يسلم تسليم الأخ الوفى ويعرب عن تحية الصديق المشتاق ، أهو أخ صديق طال العهد بلقائه فنسيته أو كدت تنساه ، أم هو رفيق الصبا وعهد الطفولة جعله كر الأعوام واختلاف الزمن نكرة أمام عينيك ؟ على أنك جدير أن تقع من بغتة الأمر فى ورطة الحيران ، فلا يلبث أن يستل منك ما أراد ثم اذا هو منفتل عنك الى صيد آخر .

ولكن الغريب يبقى غريبا فى كل زمان ومكان ، والموظف المرفوت يبقى هو أيضا موظفا مرفوتا فى جميع الأزمنة والأمكنة ، وهما معا يلقيانك بعد يوم أو أيام فى هذا المكان أو فى مكان سواه بهذه القصة نفسها التى لقياك بها فى يومك ومكانك .

وفى النساء — كالرجال — غريبة متحيرة ، ومتعطلة ذات أطفال سبعة ، غير أنهن يصطنعن من وسائل الاستجداء هذه الوسيلة التى تشق المرائر ، فقد تكون مشغولا بنفسك فى الطريق أو فى محطة الترام فتحس يدا خفيفة تلمس طرف ثوبك ، وتسمع صوتا ضعيفا يخاطبك من بين قدميك ، فاذا نظرت لترى ما هناك رأيت شيئا يوجع القلب ويحزن النفس : طفلا تستجديك قرشا لأنها جائعة ، أرسلتها امرأة ووقفت تنتظر بعيدا وقد أفرغت على نفسها حياء

الحرائر من بيوت المجد، وذل العزيزات غدرتهن الأيام، غير انها مسألة لا تنتهى فى يوم ولا غيره ؛ ولا تنحصر فى مكان ولا فى سواه ، فهى دائمة ما دامت الدنيا ، شائعة فى الأرجاء ما وسعتها الأرجاء ، و إنما هى كذلك لأنها حرفة هينة لينة :

* * *

وبعد: فلا بد للطفل الجوعان أن يشبع ، و إذا تعرى فلا بد له أن يكسى، و إذا تعطل عن التعليم فلا بد له أن تعلموه ، و إذا ضيعه أهله وأقرباؤه وجب أن يصونه أبوه الأكبر وهو وطنه، وأن تحفظه أمه الكبرى وهى أمته ، فاذا هان أمره على الجميع انقلب شرا عظيما، وهنالك لا يستطيع أهله القادرون وأقرباؤه المفرطون أن يسلموا من عظيم شره حين لا يصاب به أحد غير هذا الوطن وهذه الأمة .

وهؤلاء الرجال القادرون على الكسب، المحتالون للاستجداء وسلب القروش بالدعاوى الكاذبة، قد يقف قانون التسول أمامهم نافد الحيلة مكتوف اليدين ، فهم يسقطون على الناس سقوط السر الخفى فى الأذن الصماء ، ولكنهم مع ذلك داء وبيل، فهل يمكن أن يقف طب الأمراض الاجتماعية أمامهم نافد الحيلة مكتوف اليدين أيضا ؟

وأولئك النسوة اللاتى يجعلن من أنفسهن مدرسة شقاء وشر ، تلقن الأطفال فنون التسول وأساليب الكدية ، وتقتل فيهم عزة النفس ونشاط العقل وموهبة الرجولة وكرامة الحياة ، أولئك النسوة كيف نامت عنهن عين القانون ، وكيف غفلت عمن معهن من الأطفال يقظة المصلحين ؟ كلا لم تنم عين القانون ولا غفلت يقظة أهل الإصلاح ، و إنما نامت أعين الرقباء ، وغفلت همة المنفذين ممن حسن بهن الظن فتركت هذه الرقابة إلى ضمائرهم .

كل شىء نافع يمشى عندنا على عكاز ، ولو استطاع كل شىء نافع أن يداوم المشى على عكازه لكان فى ذلك خير كثير ، فان فى نصف العمى من بصيص النور ما لا يكون فى العمى كله ، فاسمحوا لهذه الجوانب المضيئة من القوانين واللوائح أن تمشى على عكاكيزها أو على أرجلها الخشبية، و إذا صح أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان فقد رضينا ، ولكن على شرط ألا يتعطل العمل بهذا الذى هو كائن فعلا .

منجول